أوجست رنوار

والخلاص بالفن

obeikan.com

تعد ممارسة الفن فى ألوانه المختلفة استجابة حقيقية لأماني الإنسان وأحلامه، فالشاعر يبدع قصيدته ويودعها أحلامه وتنبؤاته، والروائي يودع روايته عالماً من الخيال الذى يبعد عن قسوة الواقع، والرسام يبدع لوحته بكل ما يملك من طاقة لعلها تخلصه من همومه، والموسيقار يجعل من الأوتار والأنغام جسراً وهمياً لتجسيد أحلامه.. وهكذا.

ومن أجل ذلك سئل الفنان رنوار: لماذا ترسم؟ فأجاب.. وقد كان حديث السن: أرسم لكي أشعر بالسعادة.

فقيل له: وهل ترسم لتسعد نفسك فقط؟.

فقال: نعم.. وإذا لم أجد فى الرسم أسباب سعادتي.. لما امتدت يدي بفرشاة على اللوحة.

ما سر السعادة فى حياة هذا الرسام العالمي أوجست رنوار؟.

لنعد إلى نشأته الأولي.. فقد ولد فى شهر فبراير عام ١٨٤١م بمدينة ليموج بفرنسا.. لأسرة متوسطة الحال.. وكان أبوه يعمل خياطاً وكذلك والدته.. وكان له خمسة إخوة يتحمل عبء إطعامهم الأب الفقير.

غرست أمه فى نفسه حب الطبيعة وهى تأخذه إلى أماكن جميلة.

ثم انتقلت الأسرة إلى باريس وأوجست فى الرابعة من عمره.. وأرسلوه إلى المدرسة.. فشغف بالموسيقى والغناء..

واكتشف أن له صوتاً جميلاً.. لكن رنوار اكتشف أيضاً أنه يميل أكثر إلى الرسم والألوان.. وبدأ رحلته الفنية العلمية بالرسم على أواني القيشاني في أحد المصانع وكان عمره آنذاك ثلاثة عشرة عاماً. وكان ما يأخذه من أجر يعطيه لأبيه ليساعده على الإنفاق على أسرته.

وبإغلاق المصنع وجد رنوار نفسه بلا عمل.. ولحسن الحظ. ظهرت موجة مراوح السيدات المزدانة برسوم زخرفية جميلة.. فأخذ يعمل مزخرفاً للمراوح ويرسم عليها الزهور ومناظر طبيعية ووجوه بعض الجميلات.

ولم ينس في خضم ذلك أن يدرس الفن دراسة أكاديمية حتى يصقل موهبته.. وكان يقضي وقته في المتاحف الفنية ومشاهدة لوحات الفنانين الكبار.. ومرة أخرى سئم عمله في مراوح السيدات وأخذ يبحث عن عمل آخر يدر عليه أجراً معقولاً يساعد به والده.

اقترب من أحد المقاهي.. ولاحظ مشادة كلامية بين صاحب المقهى وأحد العاملين في طلاء الحوائط واختلفا على الأجر.. فانصرف عامل الطلاء.. ووجدها رنوار فرصة ذهبية فاقترب من صاحب المقهى وعرض عليه أن يزين الحوائط برسوم جميلة نظير أجر زهيد.

ووافق صاحب المقهى.. واستطاع رنوار في أيام قليلة أن يزين حوائط المقهى برسوم أعجبت الرجل.. وأعجبت رواد المقهى.

واتفق معه أصحاب المقاهي أن يزين ويرسم أيضاً حوائط مقاهيهم.. فاستجاب لهم.. ووجدها فرصة للكسب.. واستطاع أن يدخر جزءاً من دخله فى هذا العمل ليلتحق بمدرسة الفنون الجميلة ويدرس فى القسم المسائي الرسم والتشريح.. وبدأ يشبع رغبته فى رسم الأجسام البشرية.

واتجه رنوار فترة من عمره إلى الأسلوب التأثيري فى الفن.. وكانت له فلسفته الخاصة التى استمدها من الطبيعة.

ويهتم رنوار فى أسلوبه الفني بالطفولة والمرأة.. حيث تعبر الطفولة عن البراءة والفطرة وإشراق الحياة.. وتعبر المرأة عن الجمال والحب والحنان.

وينتقل رنوار فى رحلات مختلفة إلى إيطاليا وشمال إفريقيا ودول أوروبا الأخرى لزيارة المتاحف واكتساب خبرات فنية جديدة.. وتأثر بسحر الشرق وبأسلوب فناني عصر النهضة فى إيطاليا.. وعاد رنوار إلى باريس ليقيم فى عام ١٨٨٣م معرضاً شاملاً ضم سبعين عملاً من إبداعه.

وفى عام ١٨٨٩م وهو فى أوائل الخمسينيات من عمره.. كان يقود دراجته كعادته كل يوم.. وكان يوماً شديد الأمطار.. فاختل توازنه وسقط على الأرض ووقع على بعض الأحجار.. وأدى ذلك إلى كسر ذراعه اليمني تلك التى يرسم بها.. وأمر الطبيب بوضعها فى الجبس.. لكن رنوار لم يستلم لهذا الحادث.. لأنه لا يستطيع أن يعيش دون أن يمسك بالفرشاة.

ساعدته زوجته على تدريب ذراعه اليسري.. وفى مدة قصيرة بدأ يستخدمها بسهولة ومهارة.. وبعد ذلك بوقت قصير أصيب بمرض الروماتيزم.

وبدأت فاعلية يده اليمني واليسري تقل..

ولم ينجح المرض فى توقف رنوار عن رسالته.. فهو يحب الحياة.. ويحب التعبير عن جمالها.. ويرى فى الرسم خلاصه من الألم والهموم.. وما هى إلا سنوات قليلة حتى أصيب بالشلل وجلس على كرسي متحرك.

لم يتوقف.. بل استطاع أن يثبت الفرشاة بين أصابعه المتيبسة.. ويتحرك بكرسيه ليرسم لوحاته ويبيعها بأثمان مرتفعة..

ورفض رنوار أن ترتعش يده.. أو يمنعه شلله من الإقبال على الحياة.

وذات مرة زاره صديقه الفنان (هنري ماتيس) وأشفق عليه وهو غارق فى إبداعه.. فسأله: لماذا تصر على الاستمرار فى الرسم على حساب صحتك؟ إنني أراك تتعذب مع كل حركة تأتي به أصابعك.

فأجاب رنوار: فعلا أنا أتألم يا صديقي.. ولكن الألم سوف يزول حتما.. بينما يبقي الجمال حياً لا يموت أبداً.. عزائي الوحيد أنني أشارك فى صنع جمال الحياة!.

لقد قضي رنوار الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة من حياته رهن القيود والآلام، لكنها كانت – مع ذلك – فترة خصبة للإنتاج الفني لديه.. فنجده يهتم بالنحت إلى جانب رسم لوحات.. ومن ذلك نحته لتمثال فينوس ربة الجمال عند الرومان..

ولأنه لم يكن يملك الحركة.. كان يمسك عصا ويطلب من مساعده النحات تسوية الأجزاء أو تعديل بعض الخطوط مشيراً بالعصا إلى هذه المواضع والأجزاء.

وكانت آخر لوحة رسمها لفتاة في السادسة عشرة من عمرها تدعي (أندريه) كانت تغني له وتدخل السعادة على نفسه.. وقد انتهى منها في اليوم الثالث من ديسمبر ١٩١٩م.. ثم وضع ريشته.. وفرك يديه وقال: "الآن أعتقد أنني بدأت أفهم شيئا من هذا الفن – فن الرسم"

ثم أطبق جفنيه إلى الأبد.. تاركاً تراثاً مشرقاً بحب الحياة.